دمشق واهلها * رد

من قلم جناب العلم ظاهر افندي خيرالله الشويري

وقفت على بذة الرد من الكاتب الاديب صاحب مقالة (اخلاق الدمشقيين) فاذا هي بعد تجريدها مما ليس من المناقشة الادبية تشتمل على ثلاث قضايا . الاولى تتصل بما هنا به بحق الدمشقيين . والثانية سهوٌ عن موقع نهر الكنك . والثالثة غفلة عن تعيين الزمان والمكان المناقش على عدد سكان سوريا فيهما

اما تتصله الى الدمشقيين بانه لم يكن ما مسهم به عن قصد منه فهو اكثر اعتبارًا مما لو اقر صريحًا بان ما سبق به في حقهم كان غير الواقع ولا شك بان ذلك عرض له من قصر مدة اقامته في دمشق وهو عين ما ذكرته في مقالتي الاولى التي خاطبا ردًّا عليه او تنديمًا به

واما قضية نهر الكنك فهي مبنية على عبارته الآتية بحروفها وهي : لم ينشأ الفرع الاوربي في اوربا ولكنه هاجر اليها من ربى البولور ومن هندكوش متجاوزًا بخارا وشواطئ بحر الخزر العجيبة وكابل حتى وصل الى نهر الكنك في الهند فقطعه وسار الى تلك القارة . اه : فعلى ما في عبارته من تشويش التعبير يتحصل منها انهم انحدروا من هندكوش ومن البولور الى شمال افغانستان بعيدين جدًّا عن شواطئ بحر الخزر العجيبة ثم ساروا شرقًا بجنوب حتى بلغوا كابل وربما اعتشروا الى غربي نهر هندستان او على ضفتيه . ومعلوم ان هذا النهر يفصل بين افغانستان والهند واما نهر الكنك فانه يجري في اواسط الهند من الغرب الى الشرق مائلاً الى الجنوب حتى يصب في خليج بنكالا فقوله انهم قطعوا نهر الكنك وساروا الى تلك القارة يقتضي ان يكون مسيرهم الى تيبت من مملكة الصين او الى بورما وسيام من الهند الصينية لا الى قارة اوربا الاَّ اذا كان هناك قارة اخرى تسمى اوربا فعلمي وعذر كل احد سواهُ اننا لم نسمع بها من غيره . واما ان كان مرادهُ اوربا المعروفة فلا يصح ان يسار اليها من كابل شرقًا الى ما وراء نهر الكنك ولهذا اعتذرت له عنه انه خطأ سهو ولا زلت اعتذر له بذلك وان كان رفض اعتذاري وجزاني عنه لومًا وتجهيلاً وهو يعلم يقينًا ان ما استشهد به لاثبات دعواهُ لم يفد شيئًا اذ لم يقل فيه ان اولئك المهاجرين قطعوا نهر الكنك سائرين الى اوربا . واني واحة شاهدٌ ما كنت لارضى له بما انتهت اليه هذه القضية من الانفصاح امام مطالعي المنتطف في الآفاق ولا ان يؤثر عنه ولكن العدل اعتبرهُ به عقابًا لكونه لم يخلصني الود كما اخلصته اياهُ

واما المناقشة في عدد سكان سوريا فمنشأها قوله : وكانت في زمن الرومانيين تنوم داود اكثر من اربعين مليونًا فهي الآن لا تفي باحتياج المليونين من اهلها : وذلك بعدما اوردهُ في وصف دمشق واهلها وغوطتها حتى ان مقالته من اصلها ليست في سوريا على العموم فيتعين اتجاه عبارته الى دمشق وغوطتها ولكني صرفتها الى سوريا عمومًا بقرينة المحال لا المقال صيانةً لكلام العاقل عن اللغو وتنبأ لتهمة التهويل عنه واعتذرت له بما كنت ارجو ان يقبل لديه ولدى غيره من ذوي الاطلاع فلم يرتض ايضًا بذلك بل اغمض عن قولي لم يتقبل ولا يوجد ما يدل ان بريه سوريا التاسعة الواسعة كانت في زمن الرومانيين مزدحمة السكان وعمد الى المحاماة عن السهو بالاستدلال على عمران غربي سوريا بما لا مناقشة فيه واورد عدد الاسرائيليين في زمن داود وفي زمن يهوشافاط والمناقشة انما هي في زمن الرومانيين وتلك يهوشافاط كان قبل تملك الرومانيين اليهودية بمدة ٨٥٠ سنة . فعلى فرضين المناظرة لا يلزمني له جواب ولكن دفعًا للابهام اقول لو فطن الى قول داود لبواب والروساء اذهبوا وعدوا اسرائيل لتأكد ان ذلك عدد رجال اسرائيل الذين يطيقون حمل السيف لا عدد جنود قائمة تحت السلاح واذا كان رجال تسعة اسباط ١١٠٠٠٠٠ وللاوي وبنيامين ٣٤٤٠٠٠ مثل سبطين من التسعة مع ما علم من قلة عدد السبطين عدد ٤٨ : ٢٥ وفض ٣٠ : ٤٧ وبهوذا وحدهُ ٤٧٠٠٠٠ يكون المجموع ١٨١٤٠٠٠ وعلى تسليم ان الذين يطيقون حمل السيف نصف الذكور فقط واضافة مثل هذا العدد اليه للنصف الآخر ومثليه للاناث يكون عدد الاسرائيليين ٧٢٥٦٠٠٠ ولم يبقَ من الامم بين اسرائيل الى زمن داود بقية تُعدّ ولكن ارضاءً له نضيف تكملة

سبعة ملايين ونصف. ثم ان معظم المحصور حينئذٍ من سوريا الى جبل حوران وراء بصرى والى ما وراءه تدمر نحو نسمها اي ٢٥٠٠٠ ميل مربع يركدهُ قولهُ وبنى (اي سليمان) تدمر في البرية وقد كانت كذلك في زمن الرومانيين ولذلك خربت بعد زينوبيا ولم يقم مدينة على آثارها ولا يقربها كما يكون في خراب المدن المعمورة الارجاء. والارض التي اقتسمها الاسرائيليون سهاماً ١٤٠٠٠ ميل مربع ونيف وقد انتقلوا وانتشروا الى ذلك الوقت حتى كانت ارض سكناهم يقدر ثلاثة ارباع معمور سوريا بدليل دخول تدمر فيها بل بقدر معمور سوريا الآن جميعها لقوله وجمع داود كل اسرائيل من شيحور مصر (نهر النيل) الى مدخل حماة ١ اي ١٣ : ٥ فيخرج للميل المربع اقل من ٢٨٠ لا الف كما ذكرهُ في ردهِ. وعلى افتراض ان سائر معمور سوريا كان مزدحم السكان كارض اسرائيل تساهلاً يكون عدد سكان سوريا عشرة ملايين ولو اضفتُ اليها عشرة ملايين اخرى ارضاء لصاحبي ما لس من بيت ابي جريباً على بعض الاشكال يكون ٢٠ مليوناً وذلك اقل من الاربعين كما لا يخفى. ولعل الذي ادّى به الى هذا الخطا غفلة عن حدود سوريا الآن وعن تغير حدودها عما كانت في زمن داود ويهوشافاط والرومانيين ولذلك لا يمكن تخريج عبارته بهذا الشان على وجه صحيح وهذه النتيجة عينها نتيجة ايراده عدد رجال يهوشافاط واظنهُ اوردها بدون مطالعة ما قبلها من السفر ربما لضيق وقتهِ كما اشار الى ذلك والاّ لرأى ان يهوشافاط كان يملك يهوذا وبنيامين وبعض افرايم واكثر اللاويين ولو اضاع نظرهُ على خارطة اراضي الاسباط (اي اتساع ارض كل من يهوذا وافرايم وما ظهر انفاً من كون عدد يهوذا بقدر اربعة اسباط يكون تحت ملك يهوشافاط نصف الاسرائيليين وشاهدهُ قول يهوشافاط لاخاب ملك اسرائيل شعبي كشعبك وخيلي كخيلك ١ ملو ٢٢ : ٤ فلا يخرج ما هنا عن التعديل السابق فضلاً عن غرابتهِ من محل المناقشة كما تقدم

ثم قال ان اليهودية فقط كان عدد سكانها في ايام تيطس (وهو خرب اورشليم في تاريخ ٧٠ للميلاد) اربعة ملايين نسمة ومع ان هذا موعل البحث فقد اجتازهُ بما يفوق البرق سرعةً لاضياء وجعل شاهدهُ كهلال الشك نحولاً وخفاء فهو لا يجهل انهُ بعد الرجوع من السبي قيل للاسرائيليين جميعاً يهود ولارضهم وبالاولى لملكهم اليهودية وثانياً اكلفهُ مراجعة يوسيفوس مع تراكم اشغالهِ اجاريهِ على ذلك ولكي استفهم اذا كان عدد سكان مملكة اليهودية اربعة ملايين وهي اذ ذاك نصف سوريا الرومانيين كيف يكون عدد سكان سوريا اكثر من اربعين مليوناً. واخشى ان اقنع نفسي بما لا يقتنع بهِ احد حتى ولا صاحبي نفسهُ ان محصولات حبوب سوريا كانت تزيد عن اهلها بعدما سبق في سوريا من الحروب اليونانية والرومانية والانتيوخية والمكابية والسامرية والاسيرية والصدوقية الفريسية والهيرودسية الحروب المتواترة الدموية. على اني لولا وجوب بيان الحقيقة كنت اود ان اسكت قابلاً الجهالة على نفسي من ان يظهر صاحبي مع وفور علمهِ شغفاً بهذا المقدار بهذه المسائل الطفيفة

ويحق لي ان اكرّر التصريح بانني لم اجعل مقالتي (دمشق واهلها) لتخطئته وانما لما اتت مقالتهُ (اخلاق الدمشقيين) مشتملة على ما طاب وما خبث في حقهم (كما اعترف بذلك باعتذارهِ) وعلى معتقداتهِ علمية وادبية منها ما ذكر ومنها اطلاقهُ المسامرة وهي المحادثة في الليل على الخاطبة والمغايرة بالمصالح واطلاقهُ الاود وهو الاعوجاج على ما يقتاتهِ الناس وامثال هذه وعلمت انكار كثيرين عليهِ ذلك فدفعاً من ان يبدي من لا يعرفهُ ما لا يرضاهُ ولا ارضاهُ لهُ وضعت نبذة في جغرافية دمشق اوسع مما في كتب الجغرافية المتداولة واستطردت الى ما ذُكِرَ في مقالتهِ فاعتذرت لهُ عن بعض الهفوات ولمحت عن البعض الآخر بما يلطفهُ فلم يطبع سوى بعض الاسطراد فراى صنيعي عدواناً لا احساناً

وهنا اقف القلم مقتصراً على ما هو من المباحث العلمية بحثاً واما سائر ما رصع بهِ رده مما هو خارج عن حدود المناقشة الادبية فاتركهُ لهُ اذ لم تجر ولا اريد ان تجري لي عادة في الخوض بما اقل تفاوتهِ انهُ يشين قائلهُ اكثر من المقول فيهِ. على اني لا اعرف ذلك دابّاً لهُ ولا اظن ما حملهُ عليهِ سوى الحدّة التي يقتها صاحبها ويشتد تخيلهُ من آثارها عند العود الى الحالة الطبيعية من السكون والاعتدال